

## الفصل الخامس عشر

وكان الحاج مسعود نادرة في عصره وبيئته. كان رجلاً أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وكان مع ذلك يحفظ القرآن كأحسن ما تكون التلاوة، لولا أن تلاوته هذه كانت تضطرب أحياناً، وربما انقطعت بهذا البكاء الذي كان يغلبه كلما قرأ آية فيها نذير أو تبشير، وكان أبوه الحاج عمران أمياً مثله، أو قل إنه كان أمياً كأبيه الحاج عمران، وكانت الأمية مذهباً لهذا الشيخ من شيوخ الريف المصري؛ فقد أبى أن يرسل ابنه إلى الكتاب؛ لأن أباه لم يرسله إلى الكتاب، وكان يقول: ينبغي أن ندع القراءة والكتابة والحساب لهؤلاء الأقباط الذي يُغنون عنا بها في كل ما نحتاج إليه. علينا أن نتجر ونُثمر المال إن كنا من أصحاب التجارة، وأن نزرع ونستثمر الأرض إن كنا من أصحاب الزرع، وأن ننهب ونملأ الأرض فساداً إن لم نكن من أولئك ولا هؤلاء، فإن احتجنا إلى شيء من قراءة أو كتابة أو حساب فأهون هؤلاء الأقباط يكفيننا مئونة ذلك.

وكان يشير إلى شيخ يكاد يماثله في السن ويقول: انظروا إلى هذا المعلم مرقص؛ لقد رأيته يكتب لأبي، وهو قد كتب لي حتى أخذ يضعف كما أضعف، ولكنه علم ابنه بطرس الكتابة والحساب ليقوم مقامه إن عجز عن العمل، كما علمت ابني مسعوداً التجارة في غلات الأرض ليقوم مقامي حين تقعدني السن عما أسعى فيه الآن من البيع والشراء، وكان الناس ربما ذكروا له أنه مسلم غني، وأن من الحق عليه أن يُقرئ ابنه شيئاً من القرآن ويعلمه شيئاً من العلم؛ فإن ما يقضي بالجهل على الفقراء هو الأمية، فكان ذلك يُضحكه ويُحفظه في وقت واحد: كان يضحك لأنه رأى أباه يحفظ من القرآن ما يُجزئ عنه في صلاته، وقد حفظ هو من القرآن ما يُجزئ عنه في صلاته أيضاً، وعلمه ابنه فحفظه؛ وآية ذلك أنه يُصلي ويجهر بالقراءة حيناً ويخافت بها حيناً آخر، لا يأخذ عليه أحد خطأ فيما يقرأ، وأن ابنه يُصلي ويقرأ القرآن في صلاته، فلا يُخطئ فيما يقرأ